سؤال الهوية في القرآن الكريم

د. عثمان مصباح

أستاذ محاضر مؤهل بالأكاديمية الجهوية

الرباط

Alfitra01@yahoo.fr

©نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution international (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أجريت عليه.

للاقتباس: مصباح، عثمان، سؤال الهوية في القرآن الكريم، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، عدد خاص للمؤتمر القرآني الدولي الثالث المجلد (2)، سبتمبر 2025: 285-315.

DOI: https://doi.org/10.61821/3rdconfv2.0210

الملخص:

هذه مقاربة لاستجلاء الجواب القرآني عن سؤال الهوية، وهو السؤال الذي يطرح اليوم بمناسبة الانتماءات التي اعتقلت القبائل والشعوب في تصنيفات إثنية وثقافية وسياسية أدخلت العالم في متاهة من التوترات والحروب لا مخرج منها في المدى المنظور، جعلت الناس في شك من كل الشعارات الإنسانية، والمؤسسات الدولية الناطقة باسمها، لفشلها في تأمين الشراكة العادلة لكل الأمم؛ اعتمد هذا البحث على تتبع المصطلحات المفتاحية في سياقاتها القرآنية، وعلى السُّنن ذات العلاقة، وعلى أهم النماذج التاريخية التي عرضها القرآن في قصص الأنبياء؛ انطلقت المقاربة من ثنائية الاستخلاف والاختلاف، وتوصلت إلى نوعين من الهويات: الهوية الفطرية ذات الأصل الإلهي، والهوية القطرية التي يصطنعها المترفون لمستضعفيهم في إطار وثني، يتم فيه تحويل الولاء الأعلى من رب العالمين، وهو ما تقتضيه الفطرة، إلى ولاء حصري تحريضي موهوم خادم للكبراء، وهو نفسه الإطار الوطني في لسان عصرنا. ونضال الأنبياء كان في حقيقته ضد أولئك المحتكرين للنعمة الإلهية المتمثلة في خلافة الأرض، والتي رُشح لها الإنسان من حيث هو إنسان، وقد استهدفوا عليهم السلام تحرير الناس من ذلك الإطار الوثني المعزز بسرديات أسطورية، عن طريق البيان، والذي لم يكن في حقيقته إلا بيانا إلهيا لهوية الإنسان الفطرية، وهي الهوية الجامعة لكل الشعوب، والمقتضية للشراكة العادلة، لهذا جاء القرآن حكاية لذلك الكفاح المبارك المتصل بزمان كان الناس فيه أمة واحدة.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الاستخلاف، الاختلاف، الفطرة، المترفون.

A Matter of Identity in the Holy Quran

Dr. OTMANE MESBAH
Leading Professor at the Regional Academy
Rabat

©This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license.

Citation: MESBAH, OTMANE, A Matter of Identity in the Holy Quran, Journal of the University of Holy Quran and Islamic Sciences, Special Issue of the third International Qur'anic Conference, Volume (2), September 2025:285-315.
DOI: https://doi.org/10.61821/3rdconfv2.0210.

Abstract:

This study explores the Qur'anic answer to the question of identity, a question that has become increasingly urgent in light of contemporary affiliations that have imprisoned tribes and nations within ethnic, cultural, and political categories. These categories have plunged humanity into a maze of tensions and conflicts, undermining faith in universal human ideals and the international institutions they embrace, given their failure to ensure a just partnership among all peoples. Drawing on the basic Qur'anic terms in their original contexts and the pioneering historical models in the stories of the prophets, this study uses the concepts of "caliphate" and "dispersion" as its analytical framework. This article identifies two main forms of identity: authentic identity, bestowed by God, and artificial identity, constructed by the powerful to subjugate the weak within a pagan system. In this system, innate loyalty to the Lord of the Worlds is replaced by an exclusive, aggressive loyalty, similar to modern concepts of nationalism and patriotism. The struggle of the prophets was, in reality, against those who monopolized the divine blessing of the vicegerency of the earth, to which man was nominated as a human being. The prophets aimed to liberate people from that pagan framework reinforced by mythical narratives, through a statement that was, in reality, nothing more than a divine statement of man's innate identity, which is the identity that unites all peoples and

requires just partnership. For this reason, the Qur'an came as a narration of that blessed struggle connected to a time when people were one nation.
Keywords: Identity – Caliphate (deputy) – Ikhtilaf (dispersion) – Fitra (First position) – Mutrafun (Elites).

المقدمة:

الهوية لغة: مصدر صناعي مشتق من ضمير الغائب (هو)[1]، وهو اشتقاق قديم ظهر في سياق مشروع الترجمة زمن العباسيين، قال أبو نصر الفارابي (ت: 339هـ / 950م): "هوية الشيء، وعينيتُه، ووحدته، وتشخصُه، وخصوصيتُه، ووجوده المنفردُ لهُ: كلٌّ واحدٌ، وقولُنا: (إنه هو)، إشارة إلى هويته وخصوصيته ووجوده المنفرد له، الذي لا يقع فيه اشتراك"[2]، والهوية بهذا المعنى تطلق "فِي مُقَابلَة الغيرية"[3]، ومن هاهنا استمدت الاستعمالات المعاصرة، يقول بيتر كونزن Peter Conzen: "نشأ مفهوم الهوية بالأصل من الفلسفة، ويصف منذ أرسطو ظاهرةَ النفس، بقاءَ الشيء نفسه، أو الموضوع ذاته، أو المفهوم نفسه على حاله"[4]، و"قلما يوجد مفهوم من المفاهيم النفسية لاقى من الانتشار في لغة الحياة اليومية أكثر من مفهوم (الهوية)"[5]، ففي المجتمعات العصرية يطلق هذا اللفظ في كل لغات العالم على "بطاقة يُثْبَتُ فيها اسم الشخص وتاريخ ميلاده ومكان مولده وجنسيّته وعمله، وتسمَّى البطاقة الشخصيّة أيضًا"[6].

أما في العلوم الاجتماعية فيُقرن لفظ الهوية بالفرد كما يقرن بالجماعة، ويعتبر عالم النفس إيريك إريكسون (1902 – 1994) أول من طور مبحث الهوية، وهو يطلق "على

(1) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، 3/ 2372.
(2) الفارابي، أبو نصر، التعليقات، 63.
(3) نكري، الأحمد، دستور العلماء، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، 3/ 330
(4) كونزن، بيتر، البحث عن الهوية، الهوية وتشتتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله، 93.
(5) نفسه، 91.
(6) معجم اللغة العربية المعاصرة، 3/ 2372.

هيئة الفرد التي لا تخطئها العين، الملحوظةِ للخارج تسميةَ «الهوية الشخصية»"[1]، ولعل هذا المستوى الظاهر من الهوية هو المعتبر فيما يسمى اليوم بالبطاقة الشخصية، "إلا أن إريكسون غالبا ما يتحدث عن هوية الأنا بمعنى إحساس شخصي، إنها (خبرة أنا)، الشعورُ بأنني شخصية متصلة، محددة، أمتلك جسدي وقواي الذهنية، فاعل وقادر على اتخاذ القرار"[2]، يقول: "ما نريد هنا تسميته بهوية الأنا يقصد به أكثر من مجرد حقيقة الوجود المكتسب من خلال الهوية الشخصية، إنها نوعية الأنا"[3] الناتجة عن خبرة الفرد المتجذرة في تقاليد جماعته[4]، ولهذا عرف أصحاب (معجم علم النفس والتحليل النفسي) الهويةَ بأنها "صيغة الوعي النفسي بالذات (الأنا) عبر الآخر، ومن هنا كانت المراهقة ميلادا جديدا تحاول الهوية أن تكتسب فيها دورها الاستقلالي"[5]، وهذا يعني أن شعور الفرد بنفسه وتميز ذاتيته يتحققان شيئا فشيئا عبر سيرورة التنشئة الاجتماعية، والتي يستمد الإنسان من خلالها هويته الخاصة، وهكذا تكون هوية الفرد – مع مغايرتها لباقي الهويات الفردية – اشتقاقا من هوية اجتماعية مغايرة لهويات اجتماعية أخرى، فهي دالة على ذاتيته المتفردة وعلى انتمائه الاجتماعي في الوقت نفسه. وبهذا تكون الهوية الجماعية هي أساس الهوية الفردية، وهي شرط تشكلها.

ومصطلح الهوية وإن كان حديثا، إلا أن المسألة التي يعبر عنها قديمة قدم الإنسان، إذ كانت الوقود لصراعات دامية، وغالبا ما عملت الهويات الفرعية على تفتيت الهوية الأم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ، فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًۢا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 52-53]، ولقد تمادت بالناس العصبيات

(1) البحث عن الهوية: 94.

(2) نفسه: 95.

(3) نفسه: 96.

(4) نفسه: 94.

(5) عبد القادر طه، فرج وآخرون، معجم علم النفس والتحليل النفسي، 480.

حتى نسوا هويتهم الإنسانية الجامعة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: 1]

وهذا النداء الرباني وأمثاله في القرآن دال دلالة صريحة على أن الناس غداة البعثة المحمدية كانوا يعرّفون أنفسهم من خلال تحيزات عرقية ودينية وسياسية، شكلتها ثقافات موروثة ترسخ هويات تزعم الاستثنائية، وتبرر التمييز العدواني، وتبيح في مجال القيم الكيل بمكيالين، وتفتح الباب مشرعا أمام حرب الكل ضد الكل.

في هذا السياق تناول القرآن الإشكال المتمثل في خضوع الإنسان لحتمية الهويات الموروثة، تلك التي كانت تَفرض التزاما قوميا لا انفكاك عنه يترتب على الفرد بمجرد الميلاد والنشأة، ومن أحسن شواهد الشعر الجاهلي على هذه الحال قول دريد بن الصمة[1]:

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّة إِنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وَإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّة أَرْشُدِ

فما الذي جعل الخطاب القرآني يا ترى مقنعا لشعوب نشأت على العصبية الجاهلية أن تنخرط في تجربة تاريخية جديدة تحت عنوان عابر للقوميات هو عنوان (الأمة المسلمة)؟ وكيف كان الجواب القرآني على مسألة الهوية؟ وكيف شخص أزمتها في المجتمعات التي عاصرتها الدعوة المحمدية؟ وماذا يفيدنا ذلك من بصائر فيما يخص واقع المسلمين، وفيما يتعلق بالصراعات العالمية في الزمن الحاضر؟

يحتاج الجواب على إشكالات هذه الورقة إلى الوقوف على مفهومين تأسيسيين هما: الاستخلاف والاختلاف، ذلك أن القرآن يقسم التاريخ الإنساني إلى مرحلتين متمايزتين، نص عليهما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس: 19]

فما حقيقة الاختلاف الذي قضى على وحدة الناس الأولى؟ وما صلته بظهور مشكل الهويات؟ وكيف كان الناس قبل اختلافهم؟

(1) دريد بن الصمة، ديوان دريد بن الصمة، 62.

المبحث الأول

الإنسانية من الاستخلاف إلى الاختلاف

واضح من آية الوحدة والاختلاف في سورة يونس أن الشرور التي أشقت البشرية في المنظور القرآني ظهرت في مرحلة الاختلاف، ولولا أن الله الذي لا يحب الفساد أجّل الحساب إلى يوم القيامة لحَسم هذا الاختلاف حسما باتا، لكن رحمته تعالى اقتضت إمهال الناس، وإرسال رسل يرشدونهم إلى المخارج من مآزق الاختلاف: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: 213]

والحديث عن هوية الإنسان في المرحلتين، يقتضي منا التعريف بمفهومي الاستخلاف والاختلاف.

أولًا– مفهوم الاستخلاف:

الاستخلاف هو: اتخاذ خليفة تكون له سلطة نيابية، والإنسان كما تم تعريفه في الملأ الأعلى هو خليفة في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] قال الراغب الأصفهاني: "الخلافة: النيابة عن الغير؛ إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلَف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض"(1).

وما دام الله هو الملك الحق فإن الخلافة في الأرض هي مُلك بالنيابة عن المِلك الحق، مخول لأمة من الناس، وفق عهد وميثاق، على سبيل الاختبار(2): ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 14]، والاستخلاف تكليف جماعي لا فردي، فلا خلافة دون أمة.

(1) الأصفهاني، الراغب، المفردات في غريب القرآن، 294.

(2) خصصت في كتابي: (مدخل قرآني إلى القرآن الكريم: مساهمة في إحياء الذكر وتجديد الفكر) فصلا لمقاربة مفهوم الخلافة في القرآن، وناقشت ما ثار بشأنها من جدل في تراثنا.

والخلافة في القرآن حقيقة تاريخية وقعت على ثلاثة أوجه:

في المرحلة الأولى من تاريخ الإنسان وقعت بمقتضى الفطرة، وكان الناس كلهم فيها شركاء، إذ كانوا أمة واحدة.

ثم تكرر وقوعها مع عدد من الأنبياء الذين بعثوا في القرى الظالمة بعدما أهلكها الله، وكانت الخلافة مستحقة بمقتضى الإيمان، فقد قال هود لقومه عاد: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: 69]، وقال صالح لثمود: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ [الأعراف: 74] والمقصود أن الله جعل آباءهم الأولين خلفاء، لأنهم كانوا مؤمنين، لكن جاء بعدهم من نقض العهد وبدل، كما يشير إليه قوله تعالى في قصة قوم نوح: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ. ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس: 73-74]

ثم صارت الخلافة في الملة الإبراهيمية وعدا للمستضعفين من المؤمنين بمقتضى سنة المدافعة لا سنة الإهلاك: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251]

ثانيًا– مفهوم الاختلاف:

ورد الاختلاف في القرآن بشتى تصاريفه منسوبًا إلى الناس على سبيل الوصف والتقرير، أو على سبيل النفي والتحذير في أربع وثلاثين موضعا[1]، وكل تلك الموارد جاء الاختلاف فيها مذموما. إلا أن المفهوم القرآني للاختلاف ذو مواصفات محددة، يمكننا الوقوف عليها بالنظر في السياقات التي ورد فيها لفظ الاختلاف، أو السياقات التي تشبهها، وأهم تلك المواصفات:

(1) اعتمدت في هذا الإحصاء محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة خلف

1- أنه اختلاف في الحق بعدما تبين: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الجاثية: 17]

2- أنه اختلاف لأجل الدنيا والتنازع على الملك، ولذلك علله القرآن بالقول: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [البقرة: 213] [الجاثية: 17] [آل عمران: 19]

وفي معنى (البغي) قال أبو جعفر الطبري (ت: 310هـ) ملخصا أقوال بعض قدماء المفسرين: "اختلفوا فيه الاختلافَ الذي هم عليه، تعدِّيًا من بعضهم على بعض، وطلبَ الرياسات والملك والسلطان"[1]، "وكان ذلك كله من قِبَل الذين أوتوا العلم، بغيًا بينهم على الدنيا، طلبًا لسلطانها، وملكِها، وخزائنها، وزخرفها، فسلَّط الله عليهم جبابرتَهم"[2].

3- أنه اختلاف مقترن بالتفرق الذي يهدم قواعد العيش المشترك ويؤدي إلى الاقتتال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم: 31-32]، وقال سبحانه بعد أن عَمَّ وخَصَّ في ذكر الرسل: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253]

ثالثًا- بين الاستخلاف والاختلاف:

تبين مما سبق أن مؤسسي الاختلاف أهل أهواء، كل حزب منهم يخوض خصومتين: خصومة فكرية مع الأصل المشترك الجامع على الحق والعدل، وهذا من استكبارهم، وخصومة سياسية مع منافسيهم في الاستئثار بالدنيا، أو مع من يحول بينهم وبين الاستبداد بالملك، وهذا من عدوانهم، ومن اجتماع الكبر والعدوان، يتولد البغي والسعي في الأرض فسادا، وهكذا يتم إحلال هويات جزئية وحزبية محل هوية كانت مشتركة.

فالاختلاف والاستخلاف إذن يقعان على طرفي نقيض، خلافة الأرض شراكة في النيابة عن الملك الحق، والاختلاف نيابة الغالب عن المغلوب على سبيل القهر، كحال الليل

(1) الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، 6/ 276277.
(2) نفسه، 6/ 278.

والنهار، لا يحضر أحدهما إلا بتغييب الآخر.

والعجيب أن الفقيه اللغوي أحمد بن فارس (ت: 395هـ) رد الاختلاف والاستخلاف إلى أصل واحد، ثم قال في شأن المختلفين: "لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُنَحِّي قَوْلَ صَاحِبِهِ، وَيُقِيمُ نَفْسَهُ مُقَامَ الَّذِي نَحَّاهُ"[1]، وهذا المعنى الذي استنتجه ابن فارس من استقراء استعمالات العرب هو نفسه المعنى المقصود في القرآن، وعليه جرى اصطلاحه.

(1) ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة، 2/ 210213

المبحث الثاني

الإنسان بين الهوية الفطرية وهويات الاختلاف

فَطَرَ الأمرَ لغةً بمعنى ابتدأه[1]، فالفِطرة إذن هي الهيئة الابتدائية، وقد أتينا سابقا بما يفيد من القرآن أن الناس كانوا في مبتدأ التاريخ أمة واحدة، ثم اختلفوا، فهل يكون معنى ذلك أن الاختلاف كان خروجا نهائيا عن الفطرة؟ وهل كان إنسان الفطرة كائنا مغايرا لإنسان الاختلاف؟ وهل المغايرة بين المرحلتين كانت بسبب طفرة جينية أفادت الإنسان قدرة عقلية على اجتراح خيارات حياتية متعددة؟ أم أن الإنسان هو الذي صمم الخروج من طور الفطرة تصميما بعد أن عاشه عن وعي واختيار؟

أولًا: مفهوم الفطرة

مفهوم الفطرة من المفاهيم الدينية والفلسفية المعضلة، ففي منظور الفلاسفة تدل على وضع ميتافيزيقي أو افتراضي، وفي منظور المؤرخين تنتمي عند بعضهم إلى ما قبل التاريخ، أو إلى التوحش والبداوة، وفي منظور علماء الدين هي شأن غيبي ملغز، وقد تنازع فيها الخصماء الذين رأوا فيها تعبيرا عن البراءة الأولى، فحملها كل طرف على المعنى الذي يجعلها شاهدة على صحة مذهبه الديني أو الفلسفي.

وقد سبق لي أن تناولت تاريخ هذا المفهوم في سياقه الإسلامي في دراسة أكاديمية[2] كشفت فيها عن الملابسات السياسية والفكرية التي أدخلته في حالة من الفوضى والاستغلاق، وقد وصف ابن قيم الجوزية الاختلاف في الفطرة فقال: "هذا موضع اضطربت فيه الأقدام، وطال فيه النزاع والخصام"[3]، وهذا الاختلاف يمثل نموذجًا ممتازًا للأساليب الفكرية التي يستعملها الكتابيون لتفتيت الهوية الجامعة، وتأسيس هويات فرعية على أنقاضها.

(1) الفيروزآبادى، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة فطر.

(2) مصباح، عثمان، مفهوم الفطرة: دراسة نقدية لمقالات الإسلاميين.

(3) ابن قيم الجوزية، شمس الدين، أحكام أهل الذمة، 2/ 945.

وقد أعدت تناول مفهوم الفطرة في دراســـات لاحقة حيث اكتفيت بمنطوق النص المؤسس، وبمنطقه الداخلي، وتوصلت أخيرا إلى تعريف للفطرة التي فطر الله الناس عليها كما يلي: "الفطرة هي ما ابتدأ الله عليه الناس خَلْقا وتعليما واســـتخلافا"[1]، وهذا الأمر تحقق على هذا الوجه في المرحلة الأولى من تاريخ الإنســـان كما يحكيه القرآن، والأنبياء عليهم السلام ابتداء من نوح إنما جاؤوا لرد الناس إلى ذلك الأمر الأول.

ومجموع الأعمال الابتدائية التي أعطت الفطرة الإنسانية يمكن ترتيبها كالآتي:

- عملية الخلق: وفيها خلق الله الإنســـان بيديه من طين الأرض، ثم ســـواه، أي أتم هيئته البيولوجية الحية في صورة البشر البالغ، ثم نفخ فيه من روحه تأهيلا للخلافة.
- عملية التعليم: وفيها تم تعليم الأسماء كلها، فاكتملت في الإنسان الأول كفاءته النظرية.
- التأهيل العملي: من خلال تجربة الجنة التي كان مقصـــودها تعريف الإنســـان بسَـــوْءتيه الباطنة والظاهرة، والدلالة على عداوة إبليس وكيده.
- الإرشـــادات الموجهة إلى بني آدم الذين كونوا الأمة الأولى، وهي المذكورة في ســـورة الأعراف بعد قصة الجنة.
- إذا زدت على ذلك الغاية التي لأجلها خلق الله الإنسان وعلّمه، ألا وهي الاستخلاف، ستكتمل لديك صورة الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

والحاصـــل أن الفطرة التي فطر الله الناس عليها ليســـت غريزة محضـــة، أو برمجة جينية خالصـــة، ولا هي معطاة بمجرد الولادة، ولا هي الطبيعة كما ترد في الخطاب الفلســـفي والعلمي، ولا هي حدث ميتافيزيقي خارج التاريخ، بل هي مجموع الأعمال الإلهية الحكيمة التي أعطت أول إنســـان مؤهل لخلافة الأرض، والذي نجح في تأسـيس أول أمة مسـتخلفة، فكان الناس يومئذ على خير حال، إلى أن وقع بينهم الاختلاف، فتفرقوا واقتتلوا.

ورد الناس من حيث الانتماء إلى ما كانوا عليه قبل الاختلاف هو وظيفة الأنبياء،

(1) مصباح، عثمان، نظرية في مقاصد القرآن: نحو إعادة تأسيس العقل، 620/2. وانظر لنفس المؤلف، مدخل قرآني إلى القرآن الكريم: مساهمة في إحياء الذكر وتجديد الفكر، 6279.

ولذلك خاطب الله محمدا صلى الله عليه وسلم قائلا ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: 30-32]

ثانيًا: الهوية الإنسانية في مرحلة الاختلاف

حين كاد إبليس الإنسانَ أول مرة كان يواجه فردا، لكنه في المرة الثانية كان إزاء أمة محكمة البناء، فاجتهد في اختراق هذه اللحمة الاجتماعية المتماسكة من خلال النخبة الخائنة، غير أن استراتيجية الإغواء بقيت هي هي: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: 120]، وهو ما يعني في هذا السياق الاستفراد الاقتصادي، والاستبداد السياسي، وإحداث شرخ اجتماعي تتدلى منه الأغلبية إلى الحضيض.

وبهذا كسب إبليس موالين من بني آدم لهم قوة ونفوذ، يستعين بهم على إغواء الجماهير، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا. رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: 67-68]

فكيف تم بناء النموذج المضاد الذي يسميه القرآن (الطاغوت)، ذاك الذي صار في عصور الاختلاف بديلا عن نموذج الاستخلاف؟

1- قراءة في أول اختلاف ظهر في الأرض: الأمة التي أخرجتِ البشرية من الوحدة إلى الاختلاف هم قوم نوح، وقد حمّلهم الله مسؤولية هذا التأسيس حين قال: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ. وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ. وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ [النجم: 50-52]

وقصة نوح عليه السلام مع قومه حُكيت في القرآن من خلال مشهدين: مشهد يواجه فيه سادة القوم، ومشهد يتوجه فيه إلى المستضعفين من قومه، وهم السواد الأعظم الخاضع لسلطة السادة.

والعجيب أن المشهد الأول هو الذي نجد فيه جدلًا حاميًا، وصوتًا مسموعًا من

الطرفين، أما المشهد الثاني فنرى فيه نوحًا كأنه يكلم نفسه، وكأنه يخاطب قومًا خُرسًا، حتى رفضُهم عبروا عنه تعبيرًا ميميًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: 5-7]

وسر ذلك ظهر حين: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: 21] فهم إذن مجرد أتباع لا رأي لهم بالأصالة، أقوالهم ليست أقوالهم، وأفعالهم محض طاعة، تمرسوا بالخضوع المطلق للسادة الذين جمعوا بين قوة المال وقوة العصبية الحامية، وهنا وجب أن نسأل:

كيف تحول الإنسان الفطري خليفة الله في الأرض إلى هذا الكائن البشري المثير للشفقة، والذي ضُربت عليه الذلة والمسكنة؟ أو بتعبير إتيان دو لا بويسيه (1530-1563م) Étienne de La Boétie : "أيُّ شؤمٍ هذا الذي استطاع أنْ يُخرج الإنسان عن طبيعته، وهو الكائن الوحيد الذي ولد حقا لكي يعيش حرا، وأنْ يُنسيَه ذكرى وجوده الأول، والرغبةَ في استرجاعه؟!"[1].

علينا الآن أن نستحضر السُّنة التاريخية التي أكد عليها القرآن، والتي تُرافق دائما لحظة الانقلاب على الأمة المستخلفة، ألا وهي سنة البغي، وهي عملية دموية تتم في وضح النهار، تصادِر سيادة الأمة، وتطيح بها من مقامها العالي ليحتله حلفاء إبليس الذين استهواهم الوعد الشيطاني بشجرة الخلد وملك لا يبلى.

وهذه السُّنة يعرفها حق المعرفة من تتبعها في القرآن، وهذا النبي صلى الله عليه وسلم وهو أول دارس للقرآن يخبرنا: «مَا كَانَتْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا كَانَ بَعْدَهَا قَتْلٌ وَصَلْبٌ»[2]، ولم يستثن أمتَه من ذلك إذ قال: «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا

(1) دو لا بويسيه، إتيان، العبودية المختارة، 40 .

(2) الطبراني، أبو القاسم، المعجم الكبير، 1/ 115.

بَعْدِي مِنْكُمْ إِلَّا هَالِكٌ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا»[1]، ولهذا رأيناه في وصـــيته لأمته يحذر بشدة من الوقوع في هذه الهاوية تحذير من يعلم بحتمية وقوع المحذور: «وَيْحَكُمْ، لاَ تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[2].

بعد هذا السطو العلني المسلح ينتقل الباغي إلى خطوة تالية، حيث يجند صناع الرأي العام كالشعراء والكهان ومن يقوم مقامهم لبناء مشروعية تقوم مقام المشروعية السابقة، وقد عقد ابن خلدون فصلا في مقدمته بعنوان: "التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول"[3]، قرر فيه "أنّ الحاجة في أوّل الدّولة إلى السّـيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشـدُّ من الحاجة إلى القلم"، "وكذلك في آخر الدّولة حيث تضـعف عصـبيّتُها"، "فيكون للسـيف مزيّة على القلم في الحالتين، ويكون أرباب السّـيف حينئذ أوسـع جاها، وأكثر نعمة، وأسـنى إقطاعا، وأمّا في وسط الدّولة فيستغني صاحبُها بعضَ الشّيء عن السّيف، لأنّه قد تمهّد أمرُه، ولم يبق همّه إلّا في تحصيل ثمراتِ الملك".

لكن الفصل للأسف كان قصيرا جدا، ولم يتعمق الظاهرة، وبسبب نشأته الطائفية التي تجعل اختلاف الصـحابة اختلافا منزها عن الذم القرآني، ولا تجري عليه سُـنن التاريخ، وتجعل طاعة المتغلب بالسيف واجبا شرعيا، حتى وإن صادر سلطان الأمة، بل إن ابن خلدون يعتبر الدولة التي أقامها الرسول خلاف السنن الطبيعية، وأن العصبية بما يلزم عنها من بطش وبغي مسألة حتمية في تأسيس الدول.

أما القاضي الفرنسي (إيتيان دو لا بويسيه) فلسلامته من الخلفية التي قيدت نظر ابن خلدون كان أكثر دقة في تشـخيص أحوال الناس تحت سـلطة المتغلبين إذ قال: "لكن الناس جميعا، ما دام لديهم شـيء من الإنسـان، لا يسـتسـلمون للعبودية على وجه التحقيق إلا في

(1) نفسه، ص 18/ 257.

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصـــحيح، 8/ 160، رقم: 6785، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب ظهر المؤمن حمى إلا في حد أو حق.

(3) انظر الفصل الخامس والثلاثين من مقدمة ابن خلدون.

حالة من اثنين: إما أن يكونوا مكرهين، وإما مخدوعين"[1]، والإكراه والخداع هما المعبَّر عنهما في القرآن بالفتنة التي أمر الله بإزالها، لأنها أشد من القتل، إذ القتل إعدام للحياة، أما الفتنة فهي إعدام لإنسانية الإنسان.

ويزيد (لا بويسييه) الأمر وضوحا فيقول : "صحيح أن الناس في البداية يخدمون مكرهين ومقهورين بالقوة، غير أن الذين يأتون بعدهم، ولم يسبق لهم قط أن ذاقوا طعم الحرية ولا يعرفون ما هي، فيخدمون غير آسفين، ويقومون طوعا بما قام به أسلافهم قسرا"[2]، لكنها طواعية المخدوعين الذين فتنهم كبراؤهم بمكر الليل والنهار فزينوا لهم ما كان قبيحا في أعين آبائهم المقهورين، وهذا ما يؤكده مؤرخ الحضارة ول ديورانت (ت 1981 م) بقوله: "حقا إن الزمن ليخلع على كل شيء مسحة من قدسية، حتى أخبث السرقات قمين أن يبدو في أيدي أحفاد اللص الذي سرق مِلْكاَ مقدسا لا يجوز عليه اعتداء؛ إن كل دولة تبدأ بالقهر، لكن سرعان ما تصبح عادات الطاعة هي مضمون الضمير، ثم سرعان ما يهتز كل مواطن بشعور الولاء للعلَم"[3].

لكن نوحا عليه السلام كان أعمق في التعبير عن انخداع الجماهير المستضعفة حين قال: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا. وَمَكَرُواْ مَكْرٗا كُبَّارٗا. وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرٗا. وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾ [نوح: 21-24]

لقد مكر السادة مكرًا شيطانيًا خفيًّا سحروا به أعين الناس، وطمسوا عقولهم، حتى صاروا لا يبصرون الحقيقة المرة كما هي، وإنما يرون في خضوعهم دينًا واجبًا لأصنام معبودة! إذن هناك أساطير ألفت بعد مرحلة السيف، وتم ترويجها بطريقة فنية بين المقهورين حتى

(1) العبودية المختارة، 43.

(2) نفسه: 45.

(3) ديورانت، وِل جيمس، قصة الحضارة، 1/ 4546.

نجحت في جعلهم "يقومون طوعًا بما قام به أسلافهم قسرا"[1]، ومن هذا الباب ذم الله الكهان والشعراء حيث قال: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ. يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ. وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ. أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: 221-226]

وقد كشف القرآن عن مقاصد الشرك فبين أن السادة قصدوا من وراء لعبة الأصنام إلى تأسيس ولاء قوي يخدم مصالحهم، ويُحكم سيطرتهم على الجمهور، فطلوه بطلاء القداسة التي تخفي وراءها أعظم نجاسة، وأصعدوا في هياكلها من بخور المرّ واللُّبان لطمس ما كان ينبعث من جرائم البُغاة من الأنتان.

ومعلوم أن الولاء يتألف من ركنين متلازمين: المودة التي تؤلف بين الجماعة، والنصرة التي تدفع عنها الأخطار، وقد كان الولاء العام في مرحلة الفطرة لله وحده، وعبارة (الولاء لله) يقصد بها إضفاء القداسة على مركزية الأمة، كما سمى القرآن المال العام (مال الله)[2].

والقرآن قد نص على مصطلح الولاء مرارًا كما جاء في مقدمة الأعراف: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3] وفي قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ. وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: 9-10]، كما نص أيضا على ركني الولاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: 25]، وفي قوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا. كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: 81-82]

وإشارة نوح عليه السلام إلى المعبودات بأسمائها: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، يقصد به ذكر الأحزاب التي توزعت الولاء الذي كان في الأمة الأولى، فهذه الأحزاب ألغت

(1) نفسه.

(2) كما في قوله سبحانه: (وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ) [النور: 33].

التعريف الفطري للإنسان، بعد أن هدمت جنة الاستخلاف الأولى، واصطنعت هويات جديدة، لا تقبل التعايش فيما بينها إلا في إطار هدنة مؤقتة، فغدا الفرد يومئذ يعرف نفسه باعتباره من آل ود، أو من آل سواع، أو من آل يغوث، أو من آل يعوق، أو من آل نسر، تعريفا مرجعيا لا يعلى عليه.

بعد زمن الفطرة إذن صارت الهوية كأنها ملقاة في مهب رياح عاتية، تحت سُحب سوداء، تطمس على الهوية المشتركة، فيغدو الناس كالأيتام على موائد اللئام، بل كالرقيق في سوق النخاسة، في انتظار أن يتفضل عليهم السادة بمرجعيات وثنية مفتعلة، وبذا صارت الهوية تصنعها اليد القوية.

واصطناع تلك المرجعيات هو في حقيقته الألوهة التي حولها الكفار عن الله، وجعلوها لأنفسهم في السر، ولأندادِهم[1] في الظاهر صرفا للجماهير عن مبدأ الشراكة في الملك النيابي خلافةً عن الله، وتجِدُ التنديد بهذه الجريمة الكبرى صريحا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ، وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ، قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: 28-30].

ومن أحسن ما يصور هذه اللعبة الشيطانية ما حكاه القرآن من خصومة أهل النار في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ. وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ [سبأ: 32-33]

ولهذا كانت أول كلمة دعا إليها الرسل ابتداء من نوح تتعلق بمصدر القيم العليا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 59]

(1) الأنداد جمع ند وهو مركز الولاء القومي الذي أُحل محل رب العالمين: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ) [البقرة: 165].

وعلى ذلك مضت سنة الله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: 36]، لأن البديل عن رب العالمين، أرباب متفرقون يتلاعبون بالقيم، بحيث تصير لعنة على الضعفاء، وشقاء للإنسانية.

2- تجربة الاختلاف في المجتمعات الكتابية

قصة قوم نوح هي قصة كل الأمم الهالكة التي ظهرت من بعد، ولم تعرف تحولا إلا على يد إبراهيم الخليل بعد أن جعله الله للناس إماما، ثم أخذت شكلها السياسي الأول على يد موسى عليه السلام، ويدل على الفارق بين المرحلتين قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ. وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ. ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: 101-103]

والفارق الأساسي بين المرحلتين يتمثل فيما يأتي:

- أن إبراهيم عليه السلام بعدما هاجر إلى الأرض المباركة كان أول من دعا إلى إخلاص الدين لله ونبذ الأصنام دعوة عابرة للقوميات.

- الأمم الهالكة كانت عبارة عن قرى، أو ما يسمى بالدولة المدينة، أما فرعون فقد كان يحكم شعوبًا متنوعة، فبعث الله إليه موسى ليحرر بني إسرائيل، فأبى خوف انتشار عدوى التحرير: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: 26]

- أن إبراهيم وآله كانت دعوتهم دعوة كتابية، يتركون بعدهم مدونات مرجعية، خلافا للرسل الذين بعثوا في القرى: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: 54]

وإذا كان المشركون قد اختلفوا في الفطرة باتخاذ الأصنام القومية، فإن بني إسرائيل قد اختلفوا في الكتاب: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ [هود: 110] وذلك أن

أحزابهم تنازعت سلطة التفسير، هذا مع أن وظيفة الكتاب هي الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وهو أمر مشروط بالبيان التام المغني عن التفسير، قطعا للطريق على محاولات احتكار النطق باسم الله، والتقول عليه خدمة لمصالح شخصية أو حزبية: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ [البقرة: 79]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ. إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 159-160]

لاحظ كيف جعل البيانَ الذي طولبوا به هو عدم الكتمان، لا التفسير، فهو بيان بلاغ وتعليم، لأن الكتاب مبين بنفسه، نزل لكي يهدي إلى الحق، ولا هداية بكلام مجمل يتوقف على تفسير من خارج، ولهذا قال الله تعالى في وصف القرآن: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان: 33]

وقد كان لترجمة الكتاب المقدس من اللغة اللاتينية إلى اللغات المحلية في أوربا أثرا بالغا على مصداقية الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تحتكر نصه وتفسيره، فتبين للناس حينئذ أن كثيرا من مزاعمها لا وجود لها في الإنجيل، ولقد كان من أعجب العجب خلوه تماما من الدعوة إلى اتخاذ الصليب، وهكذا أخذت سلطة الكنيسة في التراجع، مما يدل على أن التفاسير المزعومة إنما تبتغي التمكين لجهة على حساب جهات أخرى، توصلا إلى حُطام الدنيا والرياسة فيها.

إذن الفرق بين اختلاف المشركين والكتابيين – يهودًا ونصارى ومسلمين – هو من جهتين:

– من جهة المعبود المتكلم باسمه: إذ هو عند المشركين الصنم القومي، وهو عند الكتابيين الله تعالى.

– من جهة المرجعية المختلف فيها: إذ هي عند المشركين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي عند الكتابيين البيان الإلهي المنزل (التوراة، والإنجيل، والقرآن)، وهو تقرير للفطرة

على وجه التفصيل.

والحاصل أن النموذج الطاغوتي استطاع أن يتكلم باسم الله، وأن يستخدم كتابه في حكم الشعوب: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: 51]

والعلماء الكتابيون الذين ذكرتهم الآية يقولون صراحة أن النظام الطاغوتي أفضل في حكم الناس من نظام الشراكة الذي دعت إليه الرسل، لأن الجماهير كما يزعمون فوضوية، غيرُ مؤهلة للمشاركة في الحكم، ولهذا كانوا يشبهونهم في تفاسيرهم بالبهائم الخاضعة لغرائزها، والمحرومة من فضيلة الحكمة، وكانت الآداب السلطانية تنعتهم بالعوام، والدهماء، وسفلة القوم، وتسمي القادة الشعبيين المطالبين بالحقوق مهرطقين، ومبتدعة، ومارقين، وخوارج، ودعاة فتنة.

بعد الإطاحة بنظام الاستخلاف في المجتمعات الكتابية صار النطق باسم الله حكرًا على الحاكم المستبد وأعوانه من رجال الدين، ولهذا تمخضت النزاعات السياسية على السلطة عن مذاهب عقائدية وفقهية، وصار المسيحي مثلا لا يكفيه أن ينتسب إلى المسيحية، بل لا بد أن يصحح انتماءه بالانتساب إلى طائفة معينة، وكذلك المسلم لا يكفيه أن يقول أنا مسلم، إذ يعاجل بالسؤال عن انتمائه الطائفي، ومذهبه الفقهي، ثم يضاف إلى ذلك النسبة السياسية، وبهذه الشبكة يتم تخصيص الإنسانية في المجتمعات الكتابية، وتصنيع الهويات التي تيسر استتباع المستضعفين والسيطرة على عقولهم.

المبحث الثالث

أزمة الهوية في المجتمعات ما بعد الكتابية

لقد عبر القرآن عن أزمة الهوية في المجتمعات الكتابية بظهور اختلاف غير قابل للحل، وذلك بسبب إهدار الفرقاء للمرجعية المشتركة، وإحلال المذهبية الطائفية محلها، فصار كتاب الله تابعا لا متبوعا، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [البقرة: 113]، ثم اختلفت النصارى كما اختلف بنو إسرائيل من قبلهم: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: 14]

ثم التحق المسلمون باليهود والنصارى، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرًا، كل حزب بما لديهم فرحون، فمزق الله شملهم، وأهبطهم من عليائهم إلى حضيض الذلة والمسكنة، سنة الله التي لن تجد لها تبديلا، ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: 123]، وصدقت نبوءة رسول الله إذ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ!»[1].

أولًا– ظهور الهويات ذات المرجعية العلمانية

اعتبرت طلائع الحداثة رجال الدين خصومًا لها، وشركاء لقوى الظلام والرجعية، فأقصوهم عن تدبير المجتمعات الحديثة، وهكذا ظهرت العلمانية من قلب فلسفة الأنوار رافعة شعارات إنسانية، من حرية ومساواة وأخوة، وواعدة بفردوس أرضي بدلا من الفردوس

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، 4/ 169، رقم: 3456، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، وأخرجه مسلم في صحيحه، 4/ 2054، رقم: 2669، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

السماوي. فقامت الليبرالية على أنقاض المجتمعات الإقطاعية، واستبشر الناس بهذه الموجة التحررية من وطأة الجبابرة الذين ادعوا في الملك حقا إلهيا بمباركة من السلطة الدينية، فلما تمكنت الدول الليبرالية منذ القرن التاسع عشر الميلادي نكثت بعهودها التي أعلنتها باسم الإنسانية، واصطنعت لشعوبها هويات على المقاس، وزجت بهم في مغامرات استعمارية دموية، ومع سقوط آخر الإمبراطوريات تبلور في القرن العشرين ما يسمى اليوم بالهويات الوطنية، وسجل التاريخ بسبب من ذلك فصولا من المآسي لم يعرف لها مثيل، فإذا بالبشرية أمام نفس الداء العضال الذي عرفته منذ القدم.

كتب المفكر الفرنسي أناتول فرانس (1844- 1924م) مقالا في أعقاب الحرب العالمية الأولى عبر فيها عن صدمته بعد أن اكتشف الأسباب الحقيقة لتلك المأساة الكبرى فقال: "إن الذين ماتوا في هذه الحرب لم يعرفوا سبب موتهم. إنه الشيء نفسه في جميع الحروب. ولكن ليس بنفس الدرجة ... هذه المرة جهلُ الضحايا مأساويٌّ. اعتقدنا أننا نموت من أجل وطننا؛ وإذ بنا نموت من أجل رجال الصناعة"(1).

وهكذا استرجع المترفون زمام الأمور، وأخفوا جرائمهم وراء واجهات ليبرالية براقة، وعوض أن يحرشوا بين الشعوب قائلين: (ضحوا من أجل أوثانكم) كما صنعوا قديما، قالوا لهم اليوم: (ضحوا من أجل أوطانكم)، فقامت الدعوة الشيوعية لفضح هذا المكر، واعدة بالخلاص من قبضة المترفين، وبتحرير الشعوب من سجن الهويات الوطنية في إطار شراكة أممية، فرفعت شعار: (يا عمال العالم اتحدوا)، باعتبار أن العمال كانوا يمثلون الطبقة المسحوقة في المجتمع الليبرالي، فلما نجحت الثورات الشيوعية في بعض البلدان إذ بها تحولها إلى معتقلات كبيرة، أخضعت فيها الشعوب لدعاية إيديولوجية قاسية، فجردت الأمم من تراثها وثرواتها، وضربت عليها أسوارا حديدية، وشغلت الناس بمطاردة لا تنتهي لوساوس البرجوازية.

ثانيًا: تشخيص لأزمة الهويات الحديثة

من مفارقات التاريخ المعاصر أن كبار مفكري اليسار الذين فروا من جحيم النازية

(1) France, A. On croit mourir pour la patrie; L'Humanité. (pp. 210).

المستعلية بالهوية الجرمانية عوض أن يتوجهوا إلى الاتحاد السوفياتي فضلوا الاستقرار في الولايات المتحدة زعيمة العالم الليبرالي، وهم في غاية الإحباط من التجارب الشيوعية التي قامت يومئذ، وهذا الفيلسوف الألماني الهارب هربرت ماركوز (1898 -1979) Herbert Marcuse يعلن في يأس سنة 1964 سقوط الوعد الشيوعي بخلافة الرأسمالية، وينبه على العلة الدفينة لشقاء الأمم عبر التاريخ فيقول نقلا عن الاقتصادي الفرنسي فرانسوا بيرو (1903 -1987) François Perroux : "إن الجماهير الكادحة المتألمة، المخدوعة بالأمة [أي في المعسكر الرأسمالي]، والمخدوعة بالطبقة [أي في المعسكر الاشتراكي]، تكتوي في كل مكان بنار الصراع الذي ليس لها فيه من عدو غير السادة الذين يستغلون بمهارة أضاليل الصناعة والسلطة"(1).

أما الصراع الذي كان بين النظامين الشيوعي والرأسمالي فيصفه مركوز على أنه كان يستهدف من الجانبين معا مقاومة "شكل من الحياة كفيل بنسف أسس السيطرة"(2)، يقول: "لا يمكن القول إن العدو هو الشيوعية الراهنة أو الرأسمالية الراهنة، فالعدو في كلتا الحالتين إنما هو في الحقيقة شبحُ الحرية"(3).

فكيف أمكن إخضاع الإنسان في عصر العلم والتقدم لعبودية جديدة؟

يرى مركوز أن الإنسان الحديث تم تذويبه في مجموع مؤطر بعناية فائقة، يعمل كالآلة التي تستغرق في حركتها جميع أجزائها، بحيث لا تبقى مسافة بين الفرد والمجتمع يتحرك فيها فكره حركة نقدية تحرره من الخضوع والتبعية العمياء، وهذا الذي عابته فلسفة الأنوار على المجتمعات التقليدية(4)، وهكذا أفلح المجتمع الصناعي في إخراس المعارضات وابتلاعها، وشغل الناس بحرية الاختيار بين سلع وخدمات عن الحرية التي تصان فيها كرامة الإنسان عن

(1) ماركوز، هربرت، الإنسان ذو البعد الواحد، 8990.

(2) نفسه، 90.

(3) نفسه، 87.

(4) نفسه، 46.

الامتهان، فأصبحت "المنتجات تكيف الناس مذهبيا وتشرطهم، وتصطنع وعيا زائفا عديم الإحساس بما فيه من زيف"[1]، وهكذا وقعوا في فخ الحاجات الكاذبة وعانقوا حرية وهمية، "إن الحرية المنظمة من قبل مجموع اضطهادي يمكن أن تصبح أداة سيطرة قوية ... فقدرة المرء على اختيار سادته لا تلغي لا السادة ولا العبيد ... وإذا كان الفرد يحدد تلقائيا الحاجات المفروضة عليه فهذا لا يعني أنه سيد نفسه، وإنما يدل فقط على أن الرقابة ناجعة"[2].

فكم ابتعدنا يا ترى في القرن العشرين عما سماه إتيان دو لا بويسيه في القرن السادس عشر (العبودية المختارة)؟

ازداد مأزق الإنسانية بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، إذ استفردت أمريكا زعيمة الغرب بالسيادة العالمية، فزادت جرأتها على انتهاك القوانين الدولية، وإشعال الحروب، ونهب الثروات، وألبست ذلك لبوس محاربة محور شر صاعد، متمثل بزعمها في الإرهاب ذي الهوية الإسلامية، وقد نجحت في إقناع الشعب الأمريكي في خوض هذه الحرب التي أسفرت عن مآس جديدة، كما أرغمت معظم دول العالم على الوقوف خلفها.

يرجع العالم اللساني والمناضل اليساري ناعوم تشومسكي نجاح الحكومات الأمريكية في توريط شعبها في صناعة المأزق العالمي الجديد إلى سيطرة محكمة على الإعلام وفق منظور جديد للديمقراطية، بحيث يكون معنى الديمقراطية "أن يمنع العامة من إدارة شؤونهم، وكذا من إدارة وسائل الإعلام التي يجب أن تظل تحت السيطرة المتشددة"[3]. ومع أن هذا المعنى هو عين الاستبداد، إلا أن الشعب الأمريكي مقتنع بأنه يعيش حياة ديمقراطية، فكيف حصل ذلك؟

يعود بنا تشومسكي إلى زمن الحرب العالمية الأولى ليخبرنا عن أول نجاح للدعاية الماكرة التي صنعتها الحكومة الأمريكية من أجل تحويل شعبها المسالم الرافض للحرب إلى جموع

(1) نفسه، 4849.

(2) نفسه، 4344.

(3) تشومسكي، ناعوم. السيطرة على الإعلام: الإنجازات الهائلة للبروباجندا، 7.

"تتملكهم الهيستيريا والتعطش للحرب"[1]، رغبة في تدمير ألمانيا الشريرة، وإنقاذ العالم. تم ذلك في ستة أشهر فقط بفضل لجنة من خبراء وعلماء متخصصين، كان منهم الفيلسوف وعالم النفس المعروف جون ديوي، و"بعد أن وضعت الحرب أوزارها. تم توظيف ذات التكتيك لإثارة هيستيريا ضد الرعب الشيوعي، كما كان يطلق عليه، وقد نجحت إلى حد كبير في تدمير الاتحادات العمالية، والقضاء على بعض المشكلات الخطيرة! مثل حرية الصحافة وحرية الفكر السياسي"[2]. وكان الدرس المستفاد من تلك النجاحات الباهرة "أن الدعاية التي تتم بإشراف الدولة حينما تدعمها الطبقات المتعلمة، وحين لا يُسمح بأي انحراف عن الهدف، بإمكانها أن تحدث أثرا كبيرا. ذلك كان درسا تعلمه هيتلر وكثيرون غيره، ويتم اتباعه حتى اليوم"[3].

ووفق المنظور الجديد للديمقراطية الأمريكية يصنَّف المواطنون إلى طبقات:

1- "الطبقة المتخصصة، وهم الذين يحللون وينفذون ويصنعون القرارات ويديرون الأمور في النظم السياسية والاقتصادية والإيديولوجية، وهي نسبة ضئيلة من السكان"[4] مكلفة بتسيير البقية الباقية، يتداولون الحكم من خلال المنافسات الانتخابية بين الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي.

2- "القطيع الحائر أو الضال" أي السواد الأعظم من الشعب، ووظيفتهم أن يكونوا مشاهدين لا مشاركين، ولأن أمريكا مجتمع ديمقراطي ستتم دعوة القطيع الضال فيما يسمى بالانتخابات لتأييد أحد أفراد الطبقة المتخصصة[5].

3- الطبقة الثالثة "الذين يملكون القوة الحقيقية، وهم أولئك الذين يملكون المجتمع، وهي

(1) نفسه، 8.

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) نفسه، 10.

(5) نفسه.

بطبيعة الحال جماعة صـــغيرة"[1]، وبين يدي هؤلاء يتنافس رجال الطبقة الأولى في عرض الخدمات، فبفضلهم هم يصل مَن يصل مِن المتخصصين إلى السلطة ومراكز القرار، ولكن عليهم أن يخفوا هذه الحقيقة حتى عن أنفســهم، لئلا تخدش الصــورة المصــقولة للديمقراطية الأمريكية. وهذه الطبقة المتحكمة من وراء ســتار هم أصــحاب الثروة، وســادة الاقتصــاد العالمي.

بناء على هذا التقســيم يكون معنى الفوز بالانتخابات هو إدارة الســواد الأعظم عبر الإعلام والتعليم ووســائل الثقافة الشــعبية من طرف المتخصــصــين لمصــلحة الأثرياء المترفين، وعلى المتخصــصــين أن يقنعوا أنفســهم بأن هذه الخدمة قائمة على أســاس منطقي، والتزام أخلاقي، إذ "لا يجب السماح للقطيع الحائر بأن يكونوا مشاركين في الفعل، فهم سيتسببون في إثارة المشاكل، وبالتالي نحن بحاجة لترويض هذا القطيع، وهذا الترويض سيكون من خلال تلك الثورة الجديدة في فن الديموقراطية، أو تصنيع الإجماع والقبول"[2].

يقول تشومسكي: "فهذا على كل حال هو مجتمع رجال الأعمال الذي يسيطر على وسـائل الإعلام، ولديه موارد هائلة، وقد نجحت بفعالية شـديدة... وتم تطبيقها مرارا وتكرارا للقضــاء على أعمال الإضــراب، وكان يطلق عليها الطرق العلمية للقضــاء على الإضــراب، وكانت طرقا ذات فعالية في تعبئة الرأي العام لصالح مبادئ تافهة وخاوية من المعنى مثل الهوية الأمريكية"[3].

إذا كانت الهوية الأمريكية على هذه الدرجة من الزيف والخداع، مع أن أمريكا لا تدين بالتبعية لغيرها، بل هي سـيدة العالم كله، فكيف سـيكون حال الهويات الوطنية لبلدان تابعة مثل البلدان الإسلامية؟

(1) نفسه، 11.
(2) نفسه.
(3) نفسه، 14

الخاتمة

القرآن كما رأينا يقابل بين الاستخلاف والاختلاف، ففي أزمنة الاستخلاف يسترجع الإنسان هويته الفطرية الأولى، وفي أزمنة الاختلاف يتولى الأقوياء صناعة هويته، فتنمحي هويات، وتنشأ هويات، وتتعدد بتعدد المتنافسين، بل تُفصّل الأممُ القوية هويات على المقاس للأمم الضعيفة من أجل استتباعها كما وقع في عصرنا هذا.

هؤلاء الأقوياء في المعجم القرآني هم المترفون، وهم حلفاء إبليس الذي يتحملون جريمة إهدار الإنسانية عبر الانقلاب على نظام الشراكة، لتسخير البشر لمآربهم: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ. وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود: 116-117]

أزمة الهوية في أزمنة الاختلاف هي في الحقيقة أزمة مرجعية، لأن الشعوب مهما نجحت في نضالاتها ضد الظلم، وأسست منظومة من قيم الحق والعدل إلا وقع اختراقها من طرف المترفين، فيحرفون الكلم عن مواضعه، ثم يجعلون المعاني الشريفة تحت أقدامهم.

هكذا يحدد القرآن العلة في أزمة الهوية، إنها السياسة باعتبارها لعبة نخبوية يتحكم فيها المترفون من وراء حجاب القداسات الزائفة، والإجماعات المصطنعة بالدعايات الكاذبة، والمؤطرة بالأساطير، والمحروسة بالحديد والنار، ولا يختلف الأمر اليوم عما كان عليه بالأمس، إذ لا فرق في الجوهر بين الوثنيات القديمة والوطنيات الحديثة، ففخاخ الهويات القاتلة لا زالت تعترض سبل الإنسانية، حتى قال الفيلسوف الإنجليزي برتراند راسل (1872-1970) : "في السياسةِ الوطنيةُ هي الشر المحض"[1]، لأن الدول عبر سلطتها التعليمية "تضحي بالأطفال من أجل ما تعتبره مصلحة الدولة من خلال تعليمهم (الوطنية)، أي الاستعداد للقتل والتعرض للقتل لأسباب تافهة"[2]، وهل هناك أتفه من أن يموت الملايين، وتخرب المدن، من أجل حفنة متعفنة من المترفين.

(1) برتراند راسل، العالم كما أراه، 69

(2) Russell, B. Sceptical Essays. p 180

ولا سبيل إلى تحرير الإنسان من الاسترقاق الذي يفرض عليه من خلال الهويات المفتعلة إلا سبيل الأنبياء، ألا وهو خوض معركة البيان: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ؛ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: 1-3] وما الانفكاك إلا تحرير علمي لوعي الإنسان من أباطيل الهويات القاتلة. وقد روي عن المسيح عليه السلام: «الْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ»[1]، «بِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَارًا»[2].

ولا ينبغي أن يفهم مما قررناه في هذا المقال أن الهوية التي هي بمعنى الانتماء القرابي والعشائري والبلداني والوظيفي ... هي مرفوضة بإطلاق، بل هي من ضرورات الاجتماع، وإنما تتحول إلى خطر مميت إذا جعلت فوق الهوية الفطرية التي جاء القرآن ليرد الناس إليها.

قائمة المراجع

ابن الصمة، دريد. *ديوان دريد بن الصمة*، تحقيق عمر عبد الرسول، القاهرة: دار المعارف.

ابن خلدون، عبد الرحمن. (2004). *المقدمة*، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دمشق: دار يعرب.

ابن فارس، أحمد. (1979). *معجم مقاييس اللغة*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر.

ابن قيم الجوزية، شمس الدين. (1997). *أحكام أهل الذمة*، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري – شاكر بن توفيق العاروري، الدمام: رمادى للنشر.

الأصفهاني، الراغب. (1412هـ). *المفردات في غريب القرآن*، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية.

البخاري، محمد بن إسماعيل. (1422هـ). *الجامع الصحيح*، بعناية: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة.

(1) إنجيل يوحنا، الإصحاح 8: 32.

(2) إنجيل يوحنا، الإصحاح 8: 36.

تشومسكي، ناعوم. (2003). *السيطرة على الإعلام: الإنجازات الهائلة للبروباجندا*، ترجمة: أميمة عبد اللطيف، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

دو لا بويسيه، إتيان. (2016). *العبودية المختارة*، ترجمة صالح الأشمر، بيروت: دار الساقي

راسل، برتراند. (2019). *العالم كما أراه*، ترجمة نظمي لوقا، أقلام عربية للنشر والتوزيع.

الطبراني، أبو القاسم. *المعجم الكبير*، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، القاهرة: مكتبة ابن تيمية.

الطبري، محمد بن جرير. (2000)، *جامع البيان في تأويل القرآن*، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة.

عبد الباقي، محمد فؤاد. (1988). *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*، القاهرة: دار الحديث.

الفارابي، أبو نصر. (2012). *التعليقات*، تحقيق: جعفر آل ياسين، بيروت: دار البصائر.

فرج عبد القادر، طه، والسيد أبو النيل، محمود، وعطية قنديل، شاكر، وحسين عبد القادر، محمد، وكامل عبد الفتاح، مصطفى. *معجم علم النفس والتحليل النفسي*، بيروت: دار النهضة العربية، ط1.

الفيروزآبادى، محمد بن يعقوب. (2005). *القاموس المحيط*، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت: مؤسسة الرسالة.

القشيري، مسلم بن الحجاج. (1955). *صحيح مسلم*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

كونزن، بيتر. (2010). *البحث عن الهوية: الهوية وتشتتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله*، ترجمة سامر جميل رضوان، الإمارات العربية، العين: دار الكتاب الجامعي.

ماركوز، هربرت. (1988). *الإنسان ذو البعد الواحد*، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: منشورات دار الآداب.

مختار عمر، أحمد. (2008). *معجم اللغة العربية المعاصرة*، القاهرة: عالم الكتب.

مصباح، عثمان. (2012). *مفهوم الفطرة: دراسة نقدية لمقالات الإسلاميين*، القنيطرة: منشورات معهد الغرب الإسلامي.

مصباح، عثمان. (2018). *مدخل قرآني إلى القرآن الكريم: مساهمة في إحياء الذكر وتجديد الفكر*، ألمانيا: مؤسسة نور للنشر.

مصباح، عثمان. (2022). *نظرية في مقاصد القرآن: نحو إعادة تأسيس العقل*. في: صادقي، مصطفى، و بوكلاح، محمد، وحالي، أحمد. نحو بناء منهاج جامع لعلوم الوحي وعلوم الإنسان: الأسس الإبستمولوجية.

نكري، الأحمد. (2000). *دستور العلماء، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون*، تعريب حسن هاني فحص، بيروت: دار الكتب العلمية.

References:

France, A. (1922,18 juillet).On croit mourir pour la patrie, *L'Humanité*, pp 2-10. Retrived from https://tinyurl.com/2as4puzc.

Russell, B. (1928). *Sceptical Essays*. London: George Allen & Unwin.